أثر الإعجاز القرآني على الدرس البلاغي

الأستاذ: محمد الصغير أحمد
المركز الجامعي يحيى فارس بالمدية

1 - إشكال الإعجاز:

إن اللغة الإنسانية المعبّر عنها بالكلام ما هي إلا معان في الذهن يعبر عنها بالألفاظ، ويتم ترتيب هذه الألفاظ حسب ترتيب تلك المعاني في الذهن، والغاية الأساسية للغة هي تحقيق الاتصال بين الناس، فينقل المتكلم إلى السامع خبرا ما، أو يجيبه عن سؤال واستفسار، أو يؤكّد له معنى يتعلق بأمر من الأمور، ولما كانت الألفاظ والمفردات مجرد رموز للمعاني، والأشياء التي لا بد أن يعرف المتكلم والسامع معانيها أصلا، فلا تتم إذا الفائدة بهذه الألفاظ دون تعليقها ببعضها، وبطريقة عقلية يقتضيها حال السامع وحاجته، فإن أي تغيير في وضع الألفاظ بجانب بعضها لا بد أن ينشأ عنه تغيير في المعنى المقصود وبالعكس، ومن هنا كان نظم الكلام هو اللغة، والنظم يقوم «على ترتيب الكلام حسب المعنى في الذهن وحسب ما يقتضيه النحو، ويظهر الفرق بعد ذلك في حسن، وصحة دلالة الكلام على المعنى المراد، وقوة تأثيره على نفس السامع، ومن جهة أخرى يظهر الفرق في قدرة المتكلم، بحيث يؤدي المعنى وتتم الدلالة بدقة مع بهاء وجمال العبارة المؤدية لذلك المعنى»[156].

ويتفاضل في ذلك المتكلمون فيعبر كل منهم في المعنى الواحد بكلام أو بنظم مختلف، ومن خلال ذلك يظهر إعجاز القرآن الكريم الذي لا يستطيع متكلم أن يصل إلى مستواه من النظم الذي هو غاية في أداء المعنى وتمام الدلالة، مع حسن الصورة وبهاء العبارة، وقوة تأثيرها، وهذا الذي يريده الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز في علم المعاني" من أن الأغراض والمقاصد التي يعبر عنها القرآن بصورة معجزة لا يمكن للبشر محاكاتها.

وفي سبيل ذلك يبين الجرجاني أنه لا مزية للفظ منفردا لأن أي عربي عند نزول القرآن كان يمكنه أن يأتي، أو يعرف كل الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم، كما يبين أن المعاني مرتبطة بالألفاظ ولا يمكن الفصل بين اللفظ ومعناه، وأن نظم الكلام لا يكون عفويا، وليس هو بسحر ساحر،

---

[156] أحمد شامية :خصائص العربية والإعجاز القرآني (في ضوء نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية) ، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 1995، ص146-147.

ولكنه القدرة على استخدام معاني النحو ودلالته، فبلاغة الكلام تقع في تأليفه وسبكه، وتعليق بعضه ببعض، ورد بعضه إلى بعض، وكل ذلك طبقا لقوانين النحو، ولا يمكن ربط لفظ بلفظ ،ويكون في ذلك معنى وفائدة إلا بتمثل معانيه وأحكامه،لان« تبديل العلاقات النحوية في الجملة يحولها من البنية العميقة إلى البنية النحوية الساكنة إلى البنية الظاهرية وهي البنية الإخبارية والإبلاغية المتغيرة حسب المقام»[157].

فالبنية الظاهرية التي تتمتع بالمزية قد نتجت عن الجملة العميقة، وتم ذلك بتحويل العلاقات النحوية ففي قوله تعالى: (اشتعل الرأس شيبا)[158] هذه البنية الظاهرية نتجت عن البنية العميقة التي هي اشتعل شيب الرأس، وقد تم التحويل بتحويل العلاقات النحوية، فأصبح الشيب الذي أسند إليه الفعل اشتعل في البنية العميقة فكان فاعلا، منصوبا على التمييز وصار الرأس الذي هو من سببه، وتابع له فاعلا في البنية الجديدة للفعل اشتعل...وقل مثل ذلك في عيشة راضية، وحجابا مستورا.

إن النحو والبلاغة عنصران متلاحمان في اللغة، بهما تفهم اللغة وتدرك أسرارها، وبهما يعرف سر الإعجاز في القرآن الكريم،« ويعني ذلك أن بلاغة القرآن الكريم الخارقة، وقوة بيانه المثلى تتجلى في نظمه وفق قوانين النحو وخصائص العربية بطريقة مخصوصة يعجز البشر عن مجاراتها»[159]،و قد أوضح ذلك الجرجاني بقوله:« و هل تشك اذا فكرت في قوله تعالى:(و قيل يا ارض ابلعي مائك و يا سماء اقلعي وغيض الماء و قضى الأمر و استوت على الجودى و قيل بعدا للقوم الظالمين)، فتجلى لك منها الإعجاز،و بهرك الذي ترى و تسمع،انك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة و الفضيلة القاهرة،إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض،و إن لم يعرض لها الحسن و الشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية و الثالثة بالرابعةَ؟و هكذا،إلا أن تستقريها إلى آخرها و إن الفضل تناتج ما بينها ،و حصل من مجموعها»[160]،و هذا ما تشير إليه الدراسات اللغوية الحديثة بمصطلح العلاقات الوظيفية بين الكلم.

لقد نشأ الدرس اللغوي لدى العرب في رحاب النص القرآني، ومن أجل خدمته تلاوة وفهما، وما لبث أن توسعت دائرة الاهتمام اللغوي، فشملت النص الأدبي عموما، والنص الشعري خصوصا، وشرع العلماء يبحثون عن جوهر المعاني، ومستوياتها الدلالية، وتعمقوا في آي القرآن الكريم، فاختلفت

[157] أحمد شامية :خصائص العربية والإعجاز القرآني ،ص147.
[158] - سورة مريم، الآية 04
[159] أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني ،ص147-148.
[160] عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ،ص: 36 و37

الرؤى، وتنوعت الأفهام، وتعددت الأفكار، وظهرت شيّع وأحزاب، كل فريق يجد في النص القرآني مبتغاه، وكل لفيف ينتصر لرؤاه.

والحقيقة إن للقرآن الكريم دلالات متنوعة، ومعاني واسعة، و هذا التنوع للإثراء، وقد جاء متحديا أساطين البيان، ولما طُلبوا مقارعته فشلوا، وأنى لهم ذلك؟! بل قد «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه»[161].

وثبت تاريخيا أنهم حاولوا جاهدين محاكاة أسلوبه، فما قدروا، ولن يقدروا، لأنه نزل على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر.

ومن منطلق الإيمان بالوحي السماوي حاول الجرجاني أن يتلمس طريق الإعجاز في القرآن الكريم، فأطلق على مصنفه اسم "دلائل الإعجاز" ،وذهب يعدّد الوجوه التي يمكن أن يتعلق بها الإعجاز، فافترض جدلا قائما بينه وبين خصومه، وربما كانت الخصومة واقعة ثقافية حينذاك، فكان يدحض الحجة بأقوى منها، وما كان منه إلا أن نفى أن يكون الإعجاز في الألفاظ المفردة، وفي أوضاع اللغة لأنها استعملت و وجدت في الاستعمال اللغوي قبل نزوله؛ ولا يتصور أن حدثت بها أوصاف جديدة طارئة عليها ، وهل يسوغ التفاضل بها؟ إنها قدر مشترك بين أبناء الأمة الناطقين بلغة واحدة، ويعضده –دليلا- وظيفة اللغة في التواصل والإبلاغ، فإن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الأفهام، ثم إن الألفاظ لا تراد لذواتها، بل تراد للدلالة على المعاني، فإن تجلت مقاصد الناس، فلا عبرة بالألفاظ، لأنها وسائل وقد تحققت غاياتها في الإبلاغ، فما قيمتها بعدئذ.

كذلك لا يمكن أن يكون في الإيقاع (الحركات والسكنات)، فما تحداهم بأن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن، وما كان بهذه المثابة ينطبق على مثل سجع "مسيلمة"، ولا هو في الفواصل، فإنها عديلة القوافي في الشعر، ولا تعدوا أن تكون مراعاة للوزن، وللانسجام الصوتي.

ويواصل الجرجاني توضيح مذهبه، فيرى أنه لا يجوز لنا أن نعتد بأفصح اللغات –في هذا

[161] مجلة التواصل، دراسات في اللغة والأدب، عنابة، العدد8، جوان 2001.

المجال- ولا باستعمال الغريب، ولا باجتناب ما تخطئ فيه العامة.

إن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علما باللغة، وبأنفس الكلم مفردة، وبما طريقه طريق الحفظ دون ما يستعان عليه بالنظر، ويوصل إليه بإعمال الفكر.

ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز، وأن يقصد إليها، لأن« ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها، لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف»[162]؛ أجل! لم يبق للإعجاز إلا أن يقتصر على النظم والتأليف، فالمفاضلة بين أنواع الكلام، وتمييز المعجز منه مما هو ليس كذلك، لا يتأتى إلا عن طريق الفكر، وهل يستغنى الناظم في نظمه عن الروية والفكر؟! واستقر لدينا أن الألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد.

والإعجاز يتجلى أكثر إذا فكرنا في قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين)[163]،و كان هذا الإعجاز مرده إلى النظم المحقق فيه نتيجة ورود الكلم فيه وفق نظام مخصوص يوحي بتصوير دقيق للموقف.

وهكذا ينفرد الجرجاني فيغدو مجادلا عنيدا، مقتفيا منهج المتكلمين، متعمدا المنطق والعقل، معددا الوجوه الممكنة للإعجاز منفذا له، منتهيا إلى غايته التي سخّر لها كل الأدلة التي تمكن منها ليقرّر في نهاية المطاف أن الإعجاز يكمن في النظم، وقد « نفى نفيا قاطعا أن يكون فيما يسمى بمتن اللغة مما طريقه المعجم، ولا فيما طريقه الإعراب الذي يرسم صحة التركيب في الكلام، ولا فيما طريقة النغم والإيقاع لأن الشعر شريكه في ذلك»[164].

وتحصيل ما طرح هنا أن الإعجاز لا يمكن أن يكون فيما هو مشترك بين جميع الناطقين باللغة الواحدة، فما كان بهذه المثابة كانت طريقه الرواية والحفظ وليس الروية والفكر الذي يعول عليه الجرجاني كثيرا في نظرية النظم التي محور الإعجاز.

---

[162] مجلة التواصل، ص177-178.

[163] سورة هود،الآية 44

[164] مجلة التواصل، ص178-179.

والنظم لن يكون في الكلام متميزا إلا إذا كان مبنيا على مبدأ الاختيار، فمن البداهة أن تقول: «إن وجدنا كلاما أفضل من الآخر وشاعرا أحسن من شاعر، ذلك أن الاختيار مظهر طبيعي، لأنه يعتمد على قاعدة التفاوت في القصيدة، أو شعر الشاعر الواحد أو مجموعة من الشعراء»[165].

والاختيار يحقق للشاعر رغبته في الحرية، ومخاصمة النمط المألوف ويجعله يتميز بخصائص لا تتأتى لغيره، لأنه التفرد الذي يوصف به واحد من دون أقرانه، والتفاوت في الصور مهما تقارب شيء لا يكاد يقف عند حد، فإذا بلغ الأثر الأدبي درجة من التمييز لا يلحقه فيها أي أثر آخر صح أن يسمى معجزا.

معالم الدرس البلاغي في ظل الإعجاز القرآني:

إن عبد القاهر الجرجاني الأشعري الذي تنسب إليه نظرية النظم قد ارتأى في هذا الإصلاح أو ما يمكن وسمه بالنقد الثقافي للأنساق اللغوية/الفكرية-، الأخذ بمصطلح النظم، مُعرضا في ذلك عن استعمال كلمة اللفظ/المعنى التي عرفت انتشارا وذيوعا في بيئة النقاد القدامى، وذلك اقتفاء لما هو مأثور عند الأشاعرة، لأن « كلمة النظم اصطلاح يشيع في بيئتهم، وإن كان يجري على بعض ألسنة المعتزلة أحيانا مثل الجاحظ الذي ألف كتابا في نظم القرآن، والقاضي عبد الجبار الذي عالج مفهوم تناول النظم بشيء من الدقة والتفصيل»[166]، لكن الملاحظ هنا أن المصطلح لم تتحدّد معالمه عند القدامى، إذ كان مصطلحا فضفاضا نظريا يفتقر إلى التطبيقات الحية، و لكن« يبدو أن الأشاعرة كانوا يتمسكون بكلمة النظم بينما مضى المعتزلة منذ أبي هاشم الجبائي(31هـ) يضعون مكان النظم كلمة الفصاحة القائمة على جزالة اللفظ وحسن المعنى»[167]، إذ كان الجبائي يرى أن الفصاحة ليست مكافئة للنظم وقد أكد ذلك بقوله:« فليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، فقد يكون النظم واحدا وتقع المزية في الفصاحة بين أديب وآخر»[168]، وفي هذا الكلام ردّ قاطع على من زعم من الأشاعرة بأن القرآن معجز بنظمه، ومنه يتجسد بوضوح نزوع عبد القاهر الجرجاني المذهبي والفكري نحو الأشاعرة، فيستعمل

165 نفس المرجع، ص181.
166 عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص371.
167 شوقي ضيف: البلاغة، تطور وتاريخ، ص161.
168 عبد الجبار: المعني، ج16، ص197.

مصطلح النظم الشائع عندهم مقابلا لمصطلح اللفظ والمعنى كما هو معهود عند عبد الجبائي المعتزلي، ولهذا نجد عبد القاهر في كثير من المواضع في الدلائل يركز على ثنائية اللفظ والمعنى منفيا عنها الفصاحة والإعجاز، ويجعل النظم وتركيب الكلام هما مدارا للإعجاز والبيان.

لقد سبق وأشرنا أن مشكلة اللفظ والمعنى قد نشأت في جو ديني يتعلق بإبراز أوجه الإعجاز في القرآن ومرجعه، أي إلى أيّهما ينسب، إلى اللفظ أم إلى المعنى؟ أم كليهما معا؟، ومن ثم وجدنا عبد القاهر حين بسطه لهذه المشكلة فإنه يربطها بالإعجاز، وهذا من خلال عرضه لجملة من الآيات القرآنية التي هي مناط الإعجاز، وذلك بعد أن انفصلت ردحا من الدهر وعلى أيدي كثير من النحاة والنقاد من أمثال ابن جني والأمدي والقاضي الجرجاني، وهذا باعتبار « أن هذه المشكلة قد ارتبطت أساسا عند النقاد بالخصومة بين أنصار أبي تمام والبحتري، على حين أن عبد القاهر حين يصل مشكلة اللفظ والمعنى بالإعجاز نراه يخوض في أشكال أدبية، وشواهد شعرية وأمثال مصنوعة، أكثر مما يدور حول إعجاز القرآن ويعالج هذه المشكلة بطريقة أقرب إلى قواعد النحو منها إلى أساليب النحو، وإن كان في ذلك كله يمهد لبيان إعجاز القرآن في صفحات قليلة من الكتاب»[169]، ولهذا نجد بعض الدارسين من يتّجه إلى القول بأن ترداد عبد القاهر لنظريته والتركيز عليها، ورد الشبهات والطعون عنها يدل على ارتباط هذه النظرية بجذور دينية وفكرية و« أن عبد القاهر لم يكن يستهدف بنظريته في النظم البلاغي في ذاتها، وإنما يستهدف بعض الأغراض الدينية والكلامية»[170]، وفي منظورنا فإن عبد القاهر الجرجاني ورغم النسق العقائدي والفكري الذي ألف فيه وهو حرصه على إحكام بناء نظريته –النظم- وهذا ما نتلمسه في محاولة إلمامه بالنصوص على وجه الإجمال سواء اكان النص الديني أو الشعري اوالنثري، وهذا ما يدلّ على أن عبد القاهر لم يلتزم بالهدف الذي وضع لأجله الكتاب، وربما يعتبر هذا من الأسباب الداعية بعبد القاهر لمراجعة نفسه بأن ألف كتابا آخر وهو الرسالة الشافية مستدركا فيه التركيز على مسألة الإعجاز.

1 - مصطلح النظم قبل عبد القاهر:

لقد شاع مصطلح النظم عبد كثير من النحاة قبل عبد القاهر الجرجاني بحوالي مئات السنين،

---

[169] الباقلاني: إعجاز القرآن، ص276.
[170] درويش الجندي: نظرية عبد القاهر في النظم، ص121.

وذلك قبل أن يصيرها الجرجاني نظرية بلاغية /نحوية قائمة بذاتها، وهي تنسب إليه إلى عصرنا هذا دون منازع، ولقد جعل عبد القاهر مصطلح النظم مدارا« تدور عليه البلاغة كلها بأبوابها وفصولها وأقسامها حتى إننا لا نستطيع فهم عبد القاهر حق الفهم إلا إذا عرفنا أنه لا يتحدث عن البلاغة كأبواب وفصول، أو يتناول شيئا اسمه الاستعارة، وآخر اسمه التشبيه أو التمثيل أو الكناية»[171]، ولذلك فإن فهمنا للبلاغة عند عبد القاهر بهذا النحو سوف يبعدنا عن الفهم الصحيح لمراده، إذ إن البلاغة عنده هي النظم في ذاته وليس شيئا سواه سواء كان النظم مضمّنا بالمجازات أو عاريا منها، و ذلك هو المحدد لطبيعة الخطاب البلاغي –البليغ-، وهذا ما حدا بالجرجاني بأن يجمع بين حقل البلاغة الشعرية والبلاغة الخطابية اللتين لطالما كان الانفصال بينهما قائما، وإن مرد الحسن والقبح كليهما يرجع إلى النظم وطبيعته وتركيب الكلام وائتلاف بعضه مع بعض، أو على حد قوله في توخي معاني النحو، والنظمُ إذن بهذا الوجه كان قد ظهر قبل عبد القاهر وخاصة على ألسنة النحاة، وهذا ما يدل أن الجرجاني قد تأثر بصنيع النحاة في فهمهم لنظم الكلام وائتلافه وخاصة إذا علمنا سلفا أن الجرجاني كان في الأصل نحويا، كما ينم هذا عن علاقة البلاغة بالنحو، وفضل الرجل في هذا المجال لا يقدر لأنه استطاع أن يربط جسور التواصل التي ظلت مبثورة إلى عهد قريب من ظهور الجرجاني بنظريته في النظم.

إننا لو رجعنا إلى التراث النحوي لألفينا مفهوم النظم في مؤلفات القدامى ومنهم سيبويه(170هـ) إذ نجده يتناول مفهوم النظم وائتلاف الكلام وما يؤدي إلى صحته أو فساده، وحسنه وقبحه في مواضع مبثوثة في الكتاب وقد أعد لذلك فصلا سماه « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة»[172]، ومنه المستقيم الحسن والمحال، والمستقيم الكذب والمستقيم القبيح، إذ نلفه يضرب الأمثلة لكل ضرب من الأضرب السابقة، مبينا من خلالها أوجه الصحة والفساد، أو الحسن والقبح مما يعضّد الكلام، وقد اهتم بنظمه وتنسيق العبارات فيه، ويتضح أثر ذلك في مجالات كثرة كاهتمامه بحروف العطف ومدى وظيفتها في تغيير النظم صحة أو فسادا، وفي تقديم المسؤول عنه بعد أداة الاستفهام، وكما في الباب الذي عقده عن إخبار النكرة عن النكرة، إذ إن العبارة تصاغ بطريقة معينة ويلحق بها الفساد إذا غيرنا لفظا عن موضعه، أو وضع موضعا آخر، وهكذا فإننا نجد سيبويه قد تحدث –ولو ضمنيا- عن مفهوم النظم المبني على أساس النحو، كما يعتمد فيه على دقة الاستعمال، لأن كل استعمال يقتضي معنى معينا، وهو في كل ذلك يشير، ولو بطرف إلى مفهوم النظم وإن لم يسمه باسمه، كما أننا ونحن نطالع صحيفة بشر بن معتمر (ت:210هـ) نستشف ما يحيل إلى مفهوم النظم حيث نجده يقول: « فإذ وجدت

---

[171] عبد القادر حسين، أثر النحاة في التفكير البلاغي، ص394.

[172] سيبويه، الكتاب ، ج1 ، ص 8

اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكره على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها»[173]، وإن هذه الآراء النحوية التي تطالعنا في ثنايا المؤلفات النحوية تدل على أن فكرة تأليف الكلام وصوره المختلفة قد عولجت من قِبل النحاة وأبدوا إزاءها نظرات مهدت الطريق لمن بعدهم.

---

[173] الجاحظ: البيان والتبيين:ج1، ص138.

قائمة المراجع المعتمدة:

1. أحمد شامية :خصائص العربيـة والإعجـاز القرآنـي (فـي ضـوء نظريـة عبـد القـاهر الجرجـاني اللغويـة)، ديـوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 1995.
2. الباقلاني: إعجاز القرآن.
3. الجاحظ: البيان والتبيين.
4. درويش الجندي: نظرية عبد القاهر في النظم.
5. سيبويه، الكتاب.
6. شوقي ضيف: البلاغة، تطور وتاريخ.
7. عبد الجبار: المعني.
8. عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي.
9. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز.
10. مجلة التواصل، دراسات في اللغة والأدب، عنابة، العدد8، جوان 2001.